اقتصاديات الثقة – الثقة بالذات وكيمياء الوفرة

د. م. علاء الدين العظمة

دكتوراه في التخطيط الاستراتيجي - خبير تطوير مؤسساتي ومستشار أعمال لكبرى المؤسسات السورية - مدرّس جامعي

لطالما نفكر بالوفرة أو الحاجة إلى المزيد من المال، والمزيد من الوقت، والمزيد من الراحة، والمزيد من كل شيء تقريباً. باختصار نفكر في وجود كمية كبيرة تكون كافية لنا على الدوام فمن منا لا يريد أن يشعر بالوفرة في كل حياته، وفي كل مراحلها، وكل ما يخصها وما يملك، ومن منا لا يظن أو لم يمر عليه وقت وهو يظن أن الوصول إلى الوفرة أمر صعب، بل هو مستحيل؟

يهدف اقتصاد الوفرة إلى زيادة استهلاك السلع، والاهتمام ليس فقط بإشباع جميع الحاجات، بل بإيجاد حاجات جديدة. إنّه يستخدم لوصف الحالة التي تُشبع فيها الحاجات، بحيث يصبح في إمكان كل فرد أن ينال الكفاية من ضروريات الحياة، وبعض وسائل الرفاهية.

إنّ اقتصاد الوفرة أو ما يسمى باقتصاد ما بعد الندرة هو اقتصاد افتراضي يمكن أن تنتج فيه معظم السلع بوفرة وبحد أدنى من العمل البشري اللازم، بحيث تصبح متاحة للجميع بتكلفة زهيدة أو حتى مجانا. لا يعني مصطلح بعد الندرة عموماً أنه تم القضاء على الندرة بالنسبة لجميع السلع والخدمات الاستهلاكية بدلاً من ذلك غالباً ما يعني أنه يمكن لجميع الناس تلبية احتياجاتهم الأساسية للبقاء بسهولة إلى جانب تلبية نسبة كبيرة من رغباتهم للسلع والخدمات، وكثيراً ما يؤكد الباحثون على أن بعض السلع الأساسية من المرجح أن تظل نادرة في مجتمع ما بعد الندرة.

إننا نعيش حاليا عصر الندرة الناجمة عن إهمال التخطيط للمستقبل منذ القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد اتسمت الفترة ما بين ١٩٧٥ و ٢٠٠٥ بوفرة الموارد النسبية (النفط، والمياه، والطاقة، والغذاء، والائتمان، وغيرها) مما عزز التصنيع والتنمية في الاقتصاد الغربي بالإجمال. وأدى تزايد الطلب على الموارد إلى جانب ارتفاع عدد السكان إلى استنفاد الموارد.

وأحد الآثار الرئيسية لفترات الندرة هو ارتفاع الأسعار وتقلبها. ومن أجل التعامل مع هذه الحالة، يستخدم التقدم التكنولوجي من أجل استغلال أنجع للموارد مما يقلل التكاليف إلى حد كبير (سيكون كل شيء تقريبا

مجانيا). وبناء على ذلك يتوقع الباحثون أن الفترة ما بين عامي ٢٠٥٠ و ٢٠٧٥ ستكون عصر ما بعد الندرة التي لن تكون فيها ندرة.

اقتصاد الوفرة هو اقتصاد يهدف إلى زيادة استهلاك السلع والاهتمام ليس فقط بإشباع جميع الحاجات بل بخلق حاجات جديدة. ويعتقد بعض الاقتصاديين بأنّ الوفرة قد تؤدي إلى الإفراط في الإنتاج، بينما يعتقد البعض الآخر أنّ من شأن الوفرة تقليل الجهد.

يكون مفهوم الوفرة في غالب الأحيان غير واضح؛ فهي الكثير بحيث تكفيك أنت وتزيد، بل هي الكثير الكثير بحيث تكفيك أنت وتزيد. الوفرة هي شعورك بأنّ ما تملك هو شيء لا نهائي، لا ينتهي عند حد ولا عند نقطة معينة. وتخيل أنك تملك زجاجة من العصير، لكن هذه الزجاجة سحرية لا تنتهي، عندها لن تشعر بالخوف من أن يكون العصير غير كافٍ، هذا هو معنى الوفره الحقيقي. ونحن في هذا الكون غير المحدود (الـ لا نهائي)، لا نتعامل مع امتداده دون نهاية، بل نتعامل مع تفاصيلنا المحدودة؛ وذلك ربما لأننا ومنذ أن كنا صغاراً وطوال حياتنا لم نتعامل إلا مع فكرة المحدود.

" الوفرة " تعني أن هناك مايكفي الجميع، وتقابله "الندرة" أو "القلّة" فتعني أن هناك القليل مما يجب السعي وراءه، وأنّ ما حصلت عليه أنت، فلن أحصل عليه أنا. وهي حقيقة في الحياة وخاصة في بيئات تنافسية كالمسابقات الرياضية الفردية، والدرجات العلمية في المدارس والجامعات وللأسف في أسواق التنافس التجارية غير النزيهة. ولكن الوفرة هي الحقيقة الأولى والأخيرة في الأمور المهمة في الحياة، إنها الحقيقة الغالبة في الحب، والنجاح، والطاقة، والنتائج، وهي مفتاح من مفاتيح الثقة. فالبشر يحبون من يعطي ويقدم لهم قيمة ويتمنون نجاحه.

أهم شيء ينبغي أن نفهمه هو أنّ الوفرة اختيار. ولابد للجميع من تبنيه مهما كانت الحالة الاقتصادية. إنّها ليست اختيار حصري للأثرياء والأغنياء أو بمن يعيشون الرخاء والرفاهية. ولطالما تواصلنا مع أثرياء يرتبطون ويعتقدون الندرة منهجاً للحياة.

إن مقياس الحياة لن تكون بمقدار ماتم جمعه من أموال بل بقدر ما تم بذله للآخرين. إنّ الوفرة عقلية وطريقة حياة ومسار للعيش، وهي مفتاح من مفاتيح الثقة في العلاقات الشخصية والاحترافية في بيئة العمل.

كيف يمكن التخلي عن عقلية الندرة أو تفكير القلة؟

بعد أن عشنا فترة من حياتنا في ندرة، ومبدأ الـ لا وفرة، في هذا الكون غير المحدود، والذي يتمتع بوفرة كبيرة من كل شيء، قد حان الوقت لتتغير هذا المفهوم، وتبني الوفرة، والخير، فحين تصبح طريقة تفكيرك متعلقة بالوفرة، ستجد المزيد من كل شيء، سيصبح كل شيء دون حدود، أو كميات.

فكر في المقترحات التالية للتخلّي عن القلة وتفكير الندرة ولتعيش وفقًا للوفرة:

الشكر والامتنان

إنّ الشكر والامتنان طريقة هامة وفعّالة للحصول على مبدأ الوفرة. فحين تبدأ نهارك بالشكر على الكثير من الأمور، الشكر على وجودك أصلاً، وحواسك، والقدرة على المشي والكلام، ووجودك ضمن عائلة، ومجتمع عمل، وكونك شخص فعّال فيها، شكرك لله على نعمة الماء والهواء والأرض وكل شيء حولك بما في ذلك أنت. هذا الشكر سيعطيك المزيد من الأشياء التي تستحق الشكر، والآية الكريمة واضحة في هذا الصدد: "لئن شكرتم لأزيدنّكم"، وستجد المزيد من النعم الموجودة في حياتك دون أن تنتبه إلى أهميتها، وستتقلص الأشياء التي تعكر صفو حياتك، وستقل نظرتك السلبية حيالها. وبعد القليل – القليل فقط – من الشكر، ستكتشف أنك أنت تملك كل شيء، وكل شيء لديك يستحق الشكر، حتى الأشياء التي كنت تحاول تغييرها، ستبدأ بالنظر إلى الإيجابيات فيها، بمجرد تحول نظرتك من سلبية إلى إيجابية.

ركّز على ما تملك وما تريد

إنّ تركيزنا على شيء ما يجذبه إلينا، علينا الانتباه إلى الأشياء التي تشغل تفكيرنا، حتى نحد من معاناتنا.

إن الوقت الذي أمضيته من حياتك، وأنت مقتنع بأنك بحاجة إلى المزيد والمزيد، وبأنك لا تملك ما يكفيك من أي شيء، جذب ذلك إليك، أصبحت حقًا تعاني من نقص في كل شيء، ولربما لست الوحيد في هذا التفكير بل الكثير في العالم ككل، فالجميع يعيش وفقًا للقلة أو الندرة، ويتجاهل الـ "لا نهاية" رغم أننا نعيش في عالم غير محدود، في مجرة واحدة من عدد غير معروف منها، يمكن أن نعد مئات النجوم التي نراها، وفي نفس الوقت نعلم أن هناك المزيد والمزيد، ولا يمكن أن نصل إلى العدد الكبير الذي يعبر عن النجوم.

عندما تملك مبلغ من المال، ويكون كل تركيزك منصب على أن هذا المبلغ لا يكفي، ولا يمكن أن تستفيد منه كما يجب، لاحظ ما الذي ستجده، ستجد الأشياء التي تريدها قد زاد سعرها، كما قد يصادفك بعض الظروف التي تجبرك على صرف مبلغ كبير دون أن تحقق إنجازات كنت تحلم بها. أما لو أنك ركزت على أن ما تملك كافي

لما تريد، ستجد في طريقك نحو تحقيق ما تريد الكثير من الفرص والتسهيلات، حتى تحقق ما تريد بالمبلغ الذي تملك، ولا تستغرب إن زاد لديك بعض منه.

تذكر منبع الوفرة (أنت):

قد تمتلك العالم كله، وبالوقت ذاته قد يكون لديك شعورك بالحاجة للمزيد، وقد تملك فقط قدرتك على العيش وتشعر بامتلاكك كل شيء، فأنت من يحدد ما الذي تحتاج حتى تكون سعيداً. ولنتذكر الحديث النبوي "لو كان لابن آدم واديانِ من مالٍ لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب".

قد تكون عشت حياتك، وحتى هذه اللحظة وأنت مقتنع بأنك تريد المزيد حتى تحصل على الراحة، إنّ هذا المبدأ سيظهر حرفيًا في حياتك، وسيظهر بالترتيب ذاته، أي لن تكون مرتاح حتى تحصل على المزيد. أنت لم تحدد المقدار، وبالتالي ستبقى تريد المزيد والمزيد. وفقًا لذلك أنت لن تحصل على الراحة التي حددتها بالحصول على المزيد والمزيد من كل شيء في هذا الكون غير المحدود. أما عندما تكون فكرتك "أنا أشعر بالراحة"، "لدي ما يكفي لأكون سعيد" هذا ما سوف يتحقق حرفيًا، وبالترتيب، أي أنت ستشعر بالراحة بشكل دائم وأساسي. ومهما كان ما لديك سيكون كافي بالنسبة لك. ووفقًا لذلك أنت تخليت عن فكرة الحاجة الدائمة، إذاً أنت من يحدد حاجتك، وقدرتك على العيش، من خلال نظرتك إلى الأشياء والأفكار، لذا عليك أن تؤمن بأنك أنت منبع الوفرة، وذلك من خلال تغيير نظرتك إلى الحياة والكون والحاجة.

شعور الراحة اتجاه ما لديك من كل شيء ... لا لكل شيء

لا تعتقد أنك قادر على أن تمتلك كل شيء، ولو قلت لك الآن وفي هذه اللحظة خذ كل هذا الكوكب، هل أنت قادر على أن تمتلكه؟ طبعًا لا. إذاً أنت لست بحاجة إلى (كل شيء)، لأن الكون غير محدود ولا وجود لكل شيء أصلاً، فلا يمكن تحديد قدر كل شيء، وبالتالي عليك أن تدرك أنك لست بحاجة إلى (كل شيء)، أنت بحاجة إلى شعور بـ (كل شيء)، شعور بالراحة اتجاه ما لديك من كل شيء.

وعليك بالقناعة دون أن تنسى الطموح. إن القناعة لا تمنع المستثمر من تثمير أمواله وتنمية أرباحه، ولا تمنع العامل من السعي لكسب رزقه، بل هذا هو المطلوب، حيث به تتم الاستعانة على أمور الحياة والاستغناء عن سؤال الناس وليس من القناعة أن يسخط الإنسان من قلة ما رُزِق؛ ولا أن يشكو لمخلوق مثله ضعف رزقه. وقال أحد الحكماء: "من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه"، وقال آخر: "الحر عبد ما طمع، والعبد حر ما قنع".

لا تجعل حبك للامتلاك يؤثر عليك سلبًا وتذكّر أنّ التملك هو أمر مؤقت

مقولة: "لن تأخذ شيئاً إلى القبر"؛ إنها مقولة صحيحة، فتملكنا لأي شيء تملّك مؤقت، موجود فقط حتى يلبي حاجتنا المعنوية وبشكل مؤقت. إن حصولك على الألعاب في طفولتك، كان يمثل كل شيء بالنسبة لك، كنت تقدّر أملاكك بما تملك من ألعاب أو حلويات أو قطع شوكولا، هذه كانت حاجتك المؤقتة، والتي تغيرت بعد بضع أعوام، فأصبح ما تملك من ثياب أو موسيقى هو الأهم بالنسبة لك، وسرعان ما تغيرت نظرتك للحاجة، وأصبحت أموال وسيارات، وتخيل عندما تصبح في التسعين من العمر ما هي حاجاتك، أنت حينها ستكون قد أدركت أن ما تحتاجه هو موجود في القلب، لأنك اكتشفت أنك لن تحصل على كل شيء ولن تحصل عليه للأبد. إذاً من الآن تبنّى هذا المبدأ، واشعر بأهمية المعنويات، وشعورك بالوفرة من الداخل بعيداً عن التملك المادي المؤقت.

الآن أرجو من القاريء الكريم أن يسأل نفسه الأسئلة التالية:

- عندما تكون في خضم أي موقف تفاوضي، هل تؤمن حقاً بإمكانية الوصول إلى حل يوفر المنفعة لكل الأطراف، أم أنك مؤمن من أعماقك بأنّ الشخص الآخر يمكنه تحقيق المنفعة فقط على حسابك.
- عندما تكون في اجتماع والأفكار تتناثر حولك، هل تؤمن حقاً بأنّ هناك ما يكفي من الامتياز والتقدير لكل الموجودين، أم أنك تشعر بأن شخصاً ما سوف يحظى بهذه الخطوة، وتريد أن تكون أنت هذا الشخص.
- هل تعتقد أن هناك مساحة للآخرين ليروا الأمور على خلاف ما ترى وتظل محقاً فيما ترى؟
- هل تعتقد أن باستطاعتك بغض النظر عن ظروفك الاقتصادية أن تسهم في تحسين ظروف الآخرين وأن تقدّم لهم المنفعة؟

إنّ الإجابة على هذه التساؤلات تبين لك كم أنك قريب من تفكير الوفرة أم من تفكير الندرة.

في النهاية إنّ كيمياء الاقتصاد في الأصل مشتقة من مبادئ الوفرة فقد حررتنا التكنولوجيا من علم الاقتصاد التقليدي المعتمد على لعبة الربح أو الـ "لاربح" ولعبة الخسارة أو الـ "لاخسارة" وألعاب التعادل. وإنّ تفعيل الوفرة سيجلب إلينا الوفرة، والمزيد من الخير، وسيجعلنا نعيد ترتيب أفكارنا من جديد فيما يخص كل شيء، وإنّ تفاوت الناس في الأرزاق، والحظوظ سنة من سنن الله السماوية الكونية القدرية، ولا يستطيع أحد من أهل الأرض ألبتة تبديلها ولا تحويلها بوجه من الوجوه.

إنّ المبدأ الأساسي لترسيخ الثقة في حياتنا الشخصية والمهنية هو بالتأكيد على التوافق والتناغم بتطبيق مفهوم وعقلية الوفرة، وإنّ تخلينا عن القلة والندرة سيجلب لنا الشعور بالكمال الداخلي والسعادة والراحة، وأولاً وأخيراً سيحقق المزيد من النجاح.